

المستقبل وأسرار الوجود

للأستاذ عبد الجليل السيد حسن

المستقبل هو أمل من لأمل له، وعزاء من لا عزاء له؟ هو رجاء اليائسين، وورع البائسين، واللاهمة التي يعيش عليها الفاشلون والمهزومون. هو الحبل الذي يتشبث به الفرق في بحار الحياة ويرونه سببا للنجاة بينما هم في اللجة بنفوسهم، وإلى الهلاك يسرعون، فكل من لم ينل من الحياة مراده ولا رغائبه، واحتاطه اليأس وكفنه بالحزن والألم يشيمه إلى القبر، كان شريان الحياة الذي ينبض فيه وعزق له أكتافه: هو المستقبل. فيندفع إلى الحياة ليمش على الأمل والتاملات، وينتظر استمادة ما فات، واستحضار ما ستدبر. فالمستقبل هو خيط الحياة الذي بانتطاعه تنقطع الحياة؟ فلو أن هذا الذي فاته ما يريد ويأمل، وهذا الذي صدمته الحياة في نفسه وماله وولده، لو أن هذا أو ذاك: تاه عنهما وجود المستقبل وغفلا عنه ليتخج كلاهما نفسه، وقضى على حياته بيديه، وداف بنفسه إلى القبر يحفره. ولكنه يرى يتمال بالمستقبل، يحقق له أمله الضائع، ويشقى له مرضه المستعصي، ويروضه عن ماله الذي فقد وولده الذي احتسب. ويتضح لك هذا إذا صورت لذهنك ما ستكون عليه حالة هذا الذي فقد الأمل في المستقبل لأن الأسباب قد تقطعت به، لاشك أنك ستراه بمنظارك أول الأمر حائرا يبحث متلهفا من بصيص ينظر منه سببا وإن تفره رجوه، وفرجة وإن ضيقة يطل منها على المستقبل، فإذا لم يقع على بقيقته، فلا إخالك إلا ملقيا بمنظارك لتجري نحوه لتوقفه عن قتل نفسه

المستقبل هو الوجود كله، والزمان كله. وليس هناك من شيء غير المستقبل. أليس الوجود امتدادا لا يعرف منتهاه ولا أوله، وما هو هذا الامتداد؟ إنه لا يخرج عن المستقبل فليس هناك شيء اسمه الماضي، ولا شيء اسمه الحاضر، بل هناك شيء واحد اسمه المستقبل، المستقبل فقط. وإذن، فما هو الوجود؟ أليس إلا مستقبلا قد نسج، ومستقبلا ينسج، ومستقبلا ينتظر

النسج؟ أما المستقبل الذي نسج فهو ما نسميه الماضي، والمستقبل الذي ينسج فهو ما نسميه الحاضر. فالأمر لا يبدو قسمة لا حقيقة لها لهذا التيار الساري، تيار الوجود الذي يتركز في المستقبل. فتيار الزمان هو المستقبل وهو النهر الذي يسبح فيه الوجود والكائنات. فالنقطة التي تسبح فيها هذه اللعنة، تسميها الحاضر، والنقطة التي تمدتها تسميها الماضي، والنقطة التي تنتظرها تسميها المستقبل. وبالحق هذه الكائنات التي تنفاس أن النقطة التي تسميها الماضي هي نفسها التي كانت تسميها المستقبل قبل أن تصل إليها، فليس الأمر سوى خداع أسماء، وكم لخداع الأسماء من ضحاياها!

بين الماضي والمستقبل:

لنتظر معي زعك الله إلى هذا الوجود، وتأمل فيه: متى وجد...؟ وأين كان قبل أن يوجد؟ ... خذ أي شيء وتأمله، وقف بالله عليك قبل أن تلهم هذا المقنود من الغيب، وفكر «من أين جئ به؟» .. «من كرمته؟» .. «حسنا، ومتى جئ به؟» .. «حسنا، وأين كان قبل هذا الموسم؟» .. «أين.. في الدم؟» ..

ولكن يا صاحبي كيف يأتي شيء من لا شيء؟ إنه كان لا شك في ضمير الغيب، أي قبل هذا الموسم بشهور مثلا: كان في المستقبل. ولكن: هل كان وجوده مشخصا حقيقيا في هذا الغيب؟

مثل هذه المشكلة حلها «أرسطو» بفتحها السحري: مفتاح «القوة والفعل» أو «الإمكان والواقع» فالشيء قبل أن يكون، لم يكن مصدرها بل كان موجودا بالقوة، أي كان وجوده ممكنا وليس واقعا متحققا ظاهرا مشخصا، فأى شيء هو بالقوة قبل أن يوجد ويخرج من القوة إلى الفعل بتأثير مؤثر، فتلا: البذرة الآن بذرة بالفعل وشجرة بالقوة، لأنها سوف تكون شجرة. والطفل الآن طفل بالفعل وفي الواقع ولكنه سيكون رجلا في المستقبل، فهو رجل بالقوة

وقد قلنا إن الوجود هو مستقبل قد نسج وهو الماضي، ومستقبل ينسج وهو الحاضر، ومستقبل سينسج وهو الذي

وايكن هذا الشيء ' ا ' فان ' م ' الآن غير ' ا ' بعد دقيقة مثلا ؛ لأنهم استكون ' ا ' زائدا دقيقة « ولاشك أن ' ا ' فقط لا تماوى « ا زائد دقيقة » . وهكذا ، فإن كل شيء في الوجود في تغير أو حركة نتيجة لإضافة المستقبل إليه . فالمستقبل هو الذى يحمل الوجود حيا . ولولاه لما كان وجود ولا حياة . وهنا نرى أننا قد وصلنا إلى شيء جديد هو أن كل ما في الوجود لا يمكن فهمه إلا باندماج الزمان فيه واندماجه في الزمان - - - - -
 - - - - -
 التى يبدو فيها المستقبل (من: مستقبل « ماض » ومستقبل « حاضر » ومستقبل « مستقبل ») - - - - - فكان هناك حدا لا تفهم الموجودات إلا بنسبتها إليه وقياسها عليه وهو الزمان أو المستقبل حقيقة . وهذا وصول إلى ما يشبه الحد الرابع الذى تقول به النسبية (١) ولكن من طريق آخر غير طريق النسبية ، بل من طريق وجودى مستقبلى تحليلي ، لا يعتمد إلا على تحليل الوجود ومحاولة فهم العناصر التى تكونه ، وليس استخراجا لهذا الحد من قوانين الحركة الحديثة التى تقول باستحالة استخراج الحركة المطلقة للمتحرك ، وبناء عليه باستحالة التوافق المطلق والزمن المطلق ، وتقرر أن الزمن نسبي والتوافق نسبي بناء عليه بالنسبة للمتحرك ، وهى تبين نتائجها وتجربى نتائجها على الحركة وقوانينها . أما نحن ، فإننا ندمج الزمان بالمكان بناء على الوجود المستقبلى والشعور بسرياته ، فالشعور بسريران الاندماج أصل ، والقول بالحركة فرع

وتقول إن هناك صورتين من الزمان : الزمان المفهوم من الحركة ، وهو « الزمان الخارجى » الذى تفهم الأشياء الخارجية به ؛ والزمان الذى نشعر به فى أعماق وعينا ، وهو « الزمان الحقيقى » وبمقدار شعورنا بالزمان يكون وعينا ، فكلا كان وعينا قويا كان شعورنا بالزمان قويا كذلك ؛ فهناك تناسب طردى بين الوعى وبالتالى نصيبنا من الوجود ، وبين الشعور بالزمن . وقد قلنا إن الذى يحمل الزمن زمانا هو « المستقبل » بل إن المستقبل هو الذى يميز بين هذين النوعين

عرف وحده بالمستقبل ، فكان المستقبل هو الوجود بالقوة والماضى هو الوجود بالفعل . فالفرق بين الماضى والمستقبل : هو الفرق بين الإمكان والواقع . وليس الفرق بين الإمكان والواقع واسع الشقة مهول المسافة ، بل لا يبدو ذلك إلا لدى النظر الضيق ، أما أصحاب النظر السليم فإنهم لا يرون كبير فرق بين الإمكان والفعل ، لأن لهم من قوة بصرم ما يربهم المستقبل حاضرا ، والإمكان وقما

o o o

إن الزمان عبارة عن الحركة ، أو أن الحركة هى جوهر الزمان ، فمثلا : تصور أن الأرض ثابتة ، وأن الشمس طالمة أبدا ، وأنت وحدك على الأرض ثابت لا تريم . هل تشعر بشيء ؟ لا يمكن أن تشعر بشيء مطلقا ، إذا لم يكن هناك حركة ولو أقلها تفرق نفسك بها ، وتشعر بوجودك بالنسبة إليها ، فأنت إذا كنت ترى صخرة أو شجرة مثلا ، ولم يكن فى طويقك الحركة حتى تبلتها ، ولا فى طويقها الحركة حتى تبلتك ؛ فإن تشعر بوجودها ، وقد لا تشعر بوجودك أيضا . أما الذى يحملك تشعر بوجودك ووجودها فهو الحركة ، فالشجرة مثلا بميدة الآن ، وهأنذا تقترب منها ، فأنت تشعر بوجودك ووجود الكون بناء على التغير أو النقلة ، فشئ غير موجود الآن يحمله التغير والانتقال موجودا . فالشئ الذى يشعر الإنسان بذاته ووجوده هو المستقبل ؛ لأن النقلة والتغير نصير إليه ، ولو لم يكن هناك مستقبل لما كان هناك وجود ولا زمان ولا شعور للإنسان بذاته وبالكون . والنزوح إلى تحقيق ما هو غير محقق الآن ، هو أدل شئ على شعور الإنسان بالوجود وبذاته ، فالإرادة والشوق والأمل ، هى ملامم الوجود وشواهد التى لا تنكذب ، فيها يشعر الإنسان بأنه موجود حقا ولا يخالجه أدنى ريب فى وجود ذاته . وحيثما تطلق القدرة بالإرادة ، ويستطيع الإنسان تحقيق رغبته فى العالم الخارجى ، فحينئذ يتأكد له وجود ذاته ووجود العالم الخارجى

والمستقبل هو الذى يمنح الوجود الحياة ويمد منه الثبات الذى هو الموت ، وكسبه التجدد والتغير ، فليس شئ فى الوجود ثابتا مطلقا . فلو فرضنا أن هناك موجودا جامدا أو حيا ،

(١) سوف نعرض لنظرية النسبية فى لمرمة لربية